المحـور الثامـن

التَّاريخ والشخصيَّات الإسلاميَّة

غير مرخصة للطباعة

١٣٥

الجويني إمام الحرمين

بين المؤرخين: الذهبي والسبكي

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

[الأعراف: ١٨١].

نسخة مجانية

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي الدرداء قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علما سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السماوات والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنَّ العلماء هم وَرَثَة الأنبياء، لم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما وَرِثوا العلم، فمن أخذ به، أخذ بحظ وافر**». رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين**». رواه البيهقي في السنن الكبرى.

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الَّذين اصطفى، وعلى خاتمهم المُجْتَبى، محمَّد وآله وصحبه أئمَّة الهدى، ومَن بهم اقتدى فاهتدى.

(أمَّا بعد)

فإنَّ أُمَّتنا أُمَّة غنيَّة بأعلامها المُتَمَيِّزين، وشخصيَّاتها الفذَّة، الَّتي كان لها أثرها في شتَّى جوانب الحياة، علميَّة وعمليَّة، ورُوحيَّة ومادِّيَّة، ولا ريب أنَّ التاريخ لهذه الشَّخصيَّات المؤثِّرة في مجال الدِّين والدُّنْيا هو جزء مهمٌّ من التاريخ العامِّ لهذه الأُمَّة، فليس التاريخ هو تاريخ الدول والممالك فحَسْب، ولا تاريخ الملوك والأمراء رجال الملك والسياسة فقط، كما يتصوَّر الكثيرون أو يُصَوِّرون، بل تاريخ الأفراد والأفذاذ أيضًا، الَّذين ماتوا ولم تمُت آثارهم، وقد قال عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَّهْرُ، أعيانُهم مفقودة، وأمثالُهم في القلوب موجودة»[1].

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧٩/١، ٨٠)، نشر مكتبة السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

وقال الشاعر:

قَدْ مَاتَ قَوْمٌ ومَا مَاتَتْ مَكَارِمُهُمْ وَعَاشَ قَوْمٌ وهُمْ فِي النَّاسِ أَمْوَاتُ[1]!

ولقد عُنِيَتْ أمَّتُنا بتاريخ هؤلاء الأموات الأحياء عنايةً بالغةً، فعرفت كتب التراجم والطبقات لمختلف الأصناف والفئات، من: الفقهاء، والأصوليِّين، والحُفَّاظ، والمُحَدِّثين، والقرَّاء، والمُفَسِّرين، والنُّظَّار، والمُتَكَلِّمين، والزهَّاد، والمُتَصَوِّفين، والحكماء، والمتفلسفين، والنحويِّين، واللُّغويِّين، والشعراء، والأدباء، والخلفاء، والأمراء، والكُتَّاب، والوزراء، والفَلَكيِّين، والأطبَّاء، والفيزيائيِّين، والرياضيِّين، والكيمائيِّين، والجغرافيِّين، وغيرهم من الفئات والأصناف.

بل كثيرًا ما تنوَّعت كلُّ فئةٍ من هذه إلى طبقات، مثل: الفقهاء، فهناك لكلِّ مذهبٍ طبقات مثل: الحنفيَّة والمالكيَّة والشافعيَّة والحنابلة وغيرهم. وهناك من يؤرِّخ لأهل قرنٍ معيَّن كالمائة السابعة أو الثامنة، إلخ.

وهناك من كتب كتابًا في سيرة عَلَم واحد، كمَن صنَّف في سيرة عمر بن الخطاب، أو عمر بن عبد العزيز، أو الحسن البصري، أو أبي حَنِيفة، أو مالك، أو الشافعي، أو ابن حَنْبل، أو ابن المُبَارك، أو البخاري.

وهناك مَن يجمع في كتابه أعلامًا من كلِّ التخصُّصات وكلِّ الطبقات.

ويلاحظ الدارس لتراثنا العريض: أنَّ كثرة الأعلام والأعيان البارزين في تاريخنا، ينبئ بخصوبة هذه الأُمَّة، وأنَّ أرحامها ولَّادة للنوابغ.

(١) هو عمارة بن علي الحكمي اليمني، انظر: المقفى الكبير للمقريزي (٣٧١/٤)، تحقيق محمد اليعلاوي، نشر دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

ومن نظر في القرن الخامس وحده وجد فيه عددًا هائلًا من الأعلام، كما نرى ذلك في كتاب مثل «أعلام النبلاء» للذهبي، فقد ترجم لأعلام القرن الخامس، فكانوا ثمانية وتسعين وثمانمائة (٨٩٨) في الأجزاء: (١٧، ١٨، ١٩). وهم الَّذين أفردهم بالترجمة، وقد ذكر في أثناء ترجمة هؤلاء أعلامًا آخرين كثيرين، أشار إليهم إشارةً، ولم يُفْرِدْ لهم ترجمة.

وعند ابن العماد الحنبلي في كتاب «شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب» عددٌ أكبر ممَّا ذكره الذهبي بكثير.

وهذا رغم ما كانت تعاني منه الأُمَّة من فِتَن وأزمات في الناحية السياسيَّة وغيرها، مثل حكم العُبَيْديِّين «المعروفين باسم الفاطميِّين» في المغرب ومصر، وما لهم من شذوذات وانحرافاتٍ كبيرة عن العقيدة الإسلاميَّة، وحكم بني بُويه، وظهور الباطنيَّة والقرامطة في المشرق وبغداد، ممَّا مهَّد لحروب الفرنجة، الَّتي عرفت بعد ذلك باسم «الحروب الصليبيَّة».

برغم ذلك ظلَّت الأُمَّة تنجب، والمدارس العلميَّة تخرج، والقافلة تسير.

أقول هذا بمناسبة الحديث عن إمام الحَرَمَيْن أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجُوَيْني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) في الصفحات التالية.

ولا بدَّ لمن يؤرِّخ لشخصيَّة علميَّة لها وزنها وقدرها أنْ يرجع إلى ترجمتها في كتب التراجم والطبقات، ليتعرَّف عليها عن كثب، عن طريق قراءة سيرتها ومسيرتها، وشيوخها وتلاميذها، وما أثَّر فيها من أحداث، وما عاصرت من شجون، وما أُثِر عنها من مواقف، كما يتعرَّف عليها من خلال آثارها العلميَّة المُعَبِّرة عن وجهتها وأفكارها.

QaradawiBooks.com

وإمام الحَرَمَيْن الَّذي نحتفي اليوم به في جامعة قطر ـ بمناسبة مرور ألف عامٍ على مولده ـ قد عُنِي به أهل التراجـــم؛ لطُول باعه في العلم، وسَعة المساحة الَّتي أثَّر فيها، وكثرة الَّذين استفادوا منه، وتميُّز شخصيته في عصره وما بعد عصره، في علوم جمعت بين العقل والنقل، مثل: علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، والخلاف.

وإذا كان أبو الطيب المتنبِّـــي قد قيل عنه: رجل ملأ الدنيا وشـــغل الناس؛ فكذلك إمام الحَرَمَيْن، بيْدَ أنَّ المتنبِّي شـــغلهم في مَيْدان الشعر والأدب، وإمام الحَرَمَيْن شغلهم في ميدان العلم والفكر.

ولقد أحال مُحقِّق «سير أعلام النبلاء» للذهبي في هامش ترجمة إمام الحَرَمَيْن على أكثر من ثلاثين مرجعًا تحدَّثت عن الرجل، منها المُسْهب، ومنها المقتصد، ومنها المقتصر[1].

ولكنِّي في هذه العُجالة سأكتفي بالتركيز على ترجمتين، أعتقد أنَّهما متميزتان لهذا الإمام، وإنما اخترتهما لتبايُنهما في الاتجاه والموقف من هذا الإمام الكبير.

أما الأولى: فهي ترجمة «مؤرخ الإسلام» الحافظ شمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) صاحب التصانيف والموسوعات في علم الرجال والتاريخ، وذلك في كتابه «سير أعلام النبلاء».

والثانية: ترجمة العلَّامة المتكلِّم الفقيه الشـــافعي تاج الدين السُّبْكي (ت: ٧٧١هـ) الَّذي علَّـــق بعنف على ترجمة الذهبـــي، وذلك في كتابه: «طبقات الشافعيَّة الكبرى».

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٦٨ ـ ٤٧٧)، تحقيق الشيخ شـــعيب الأرناؤوط وآخرين، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٣، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

وسأقارن بين الترجمتين بموضوعية وإنصاف ما استطعت، سائلًا الله تعالى أنْ يوفِّقنا لخدمة ديننا، والرُّقي بأُمَّتِنا، والوفاء بحقِّ علمائنا وأعلامنا، وأنْ يغفر لنا زللنا، ويرزقنا الإخلاص في قولنا وعملنا، وأنْ يتقبَّلنا ويقبل منَّا. إنَّه سميعٌ مجيب.

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

الدوحة في ذي الحجة ١٤١٩هـ

إبريل ١٩٩٩م

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ترجمة إمام الحَرَمَيْن
بين الحافظَيْن الذَّهبي والسُّبْكي

ترجم كلٌّ من الإمامين: شمس الدِّين الذَّهَبي (ت: ٧٤٨هـ) وتاج الدين السُّبْكي (ت: ٧٧١هـ) لإمام الحَرَمَيْن.

الأوَّل: في كتابه الكبير «سِيَر أعلام النُّبَلاء» في الجزء الثامن عشر منه.

والثاني: في «طبقات الشافعيَّة الكبرى» في الجزء الخامس منه.

كلاهما أثنى على الإمام بما هو أهله، ولكن غلب على ترجمة السُّبكي المدح والثناء، وغلب على ترجمة الذهبي النقد البنَّاء. وهذا ما جعل السُّبْكي يشتبك في معركة جدليَّة مع الذهبي، ويكتب فصلًا ضافيًا تحت عنوان «ذكر ما وقع من التخبيط في كلام شيخنا الذهبي، والتحامل على هذا الإمام العظيم، في أمر هذا الإمام الَّذي هو من أساطين هذه الملَّة المُحَمَّديَّة، نضَّرها الله»[(١)].

وسرُّ هذا الاختلاف ما بين الذَّهْبي والسُّبْكي: أنَّ لكل منهما زاوية ينظر منها غير زاوية الآخر؛ لأنَّ لكتابِ كلٍّ منهما هدفًا غير هدف الآخر.

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (١٨٧/٥)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، نشر دار هجر، ط٢، ١٤١٣هـ.

QaradawiBooks.com

السُّبْكي يترجم في كتابه لأعلام الشافعيَّة، مبيِّنًا فضائلهم، مشيدًا بمحاسنهم، غير معنيٍّ بما لهم من هفواتٍ أو هَنَات، إلَّا من باب الدفاع عنهم، والردِّ على خصومهم في غالب الأمر.

والذهبي في كتابه يترجم لأعلام الأُمَّة، بمختلف مذاهبها، بل بمختلف فِرَقها، في شتَّى العلوم والتخصُّصات، دينيَّة وغير دينيَّة، فترجم للمحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين والمفسِّرين والمتصوِّفة، والزهَّاد والأدباء والشعراء والفلاسفة والأطبَّاء، والنحويِّين واللغويِّين والخلفاء، والأمراء والولاة والوزراء، وأهل الغناء والموسيقى، وغيرهم من الفئات.

وهو يذكر للشخص ما له وما عليه، ويغلب عليه ـ فيما رأيتُ ـ الإنصاف، حتَّى حين يترجم للمعتزلة وغيرهم من الطوائف الَّذين يراهم مبتدعة في الدِّين، كما يهتمُّ في ترجمته بالجوانب الَّتي تُميِّز شخصيَّة المترجَم وتُبَيِّن ملامحه.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ترجمة الذَّهَبِيِّ لإمام الحَرَمَيْن

على ضوء هذا كانت ترجمة الذهبي لإمـــام الحَرَمَيْن، بدأها بقوله: الإمام الكبير، شيخ الشافعيَّة، إمام الحَرَمَيْن، أبو المعالي، ضياء الدِّين.. صاحب التصانيف.

ونقل عـــن الســـمعاني قولـــه: «كان أبو المعالي إمـــام الأئمَّة على الإطلاق، مجمعًا على إمامته شرقًا وغربًا، لم تر العيون مثله...» إلى أنْ قال: «درس بنظاميَّة نَيْسابور، واستقام الأمر، وبقي على ذلك ثلاثين سنة غير مزاحَم ولا مدافَع، مسلَّمًا له المحراب والمنبر، والخطبة والتدريس، ومجلس الوعظ يوم الجمعة، وظهرت تصانيفه، وحضر درسَـــه الأكابر، والجمع العظيم من الطلبة، كان يقعد بين يديه نحو من ثلاثمائة، وتفقَّه به أئمَّة».

وذكر الذهبي نشـــأة إمام الحَرَمَيْن، وتكوينه العلمي، وشـــيوخه في شتَّى علوم الإسلام والعربيَّة.

كما ذكر شـــهادة كبار العلماء له، مثل قول أبي إســـحاق الشِّيرازي: «تمتَّعوا من هذا الإمام، فإنَّه نُزهة هذا الزمان»!

وذكر تصانيفه في الفقه والأصول والكلام والخلاف.

نسخة مبدئية

قال: «وكان إذا أخذ في علم الصُّوفيَّة وشرح الأحوال أبكى الحاضرين.

وكان يذكر في اليوم دروسًـــا، الدرس في عدَّة أوراقٍ، لا يتلعثم في كلمةٍ منها».

ثم قال: «وَصَفه بهذا وأضعافِه عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي».

ثم نقل ما ذكره أبو الحســـن الباخرزي صاحب «دُمْيَة القصر»[١] في حقِّه: «الفقه فقه الشـــافعي، والأدب أدب الأصمعي، وفي الوعظ الحَسَن ـ الحســـن البصري ـ وكيف ما هو فهو إمام كلِّ إمامٍ، والمستعلي بهمَّته على كلِّ هامٍّ، والفائـــز بالظفر على إرغام كلِّ ضرغـــام. إن تصدَّر للفقه فالمُزَني من مُزْنَته، وإذا تكلَّم «من علم الكلام» فالأشـــعري شـــعْرة من وَفْرَته»[٢] اهـ.

ولكن في تضاعيف هذه الترجمة للإمام الجُوَيني ذكر الذهبي بعض ما نقله الحُفَّـــاظ والمؤرِّخـــون عنه من مواقـــفَ وكلماتٍ، لـــم تُعْجِب السُّبْكي، فشنَّ الغارة من أجلها على شيخه الذهبيِّ؛ لأنَّها تُعَبِّر عن تغيُّر رأيه في التأويل أو في علم الـــكلام، أو موقفه من علم الحديث، ونحو ذلك، وسنعرض لها بعدُ.

* * *

(١) دُمْية القصر وعُصْرة أهل العصر لعلي الباخرزي (١٠٠٠/٢، ١٠٠١)، نشـــر دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٦٨/١٨ ـ ٤٧٧).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ترجمة السُّبْكي لإمام الحَرَمَيْن

أمَّا السُّبْكي فقد ترجم لإمام الحَرَمَيْن ترجمة مطوَّلة استغرقت ثمانيا وخمسين (٥٨) صفحة (من ١٦٥ إلى ٢٢٢) من الجزء الخامس من «طبقات الشافعيَّة الكبرى».

بدأ ترجمته بقوله: «هو الإمام، شيخ الإسلام، البحر، الحبر، المدقِّق، المحقِّق، النظَّار، الأصولي، المتكلِّم، البليغ الفصيح الأديب، العلم المفرد، زينة المحقِّقين، إمام الأئمَّة على الإطلاق، عجمًا وعربًا، وصاحب الشهرة الَّتي سارت السراة والحُداة بها شرقًا وغربًا».

واستمرَّ في هذه المدائح إلى أن استشهد بقول النابغة:

وَمَا أَرَى أَحَدًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ وَمَا أُحَاشِي مِنْ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ[1]

ثم ذكر فصلًا في «حال ابتداء الإمام»، تحدَّث فيه عن نشأته وصباه، وما ظهر عليه من مخايل النجابة وأمارات الفلاح، حتَّى كان والده يُعجَب به ويسر، وقد أخذ الفقه عن والده.

قال السُّبْكي: «ولا يشكُّ ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه، وأكثرهم تحقيقًا، بل الكل من بحره يغترفون، وأنَّ الوجود ما أخرج بعده له نظيرًا».

(١) في معلقته، انظر ديوانه صـ ٣٣، تحقيق كرم البستاني، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ونقل عن عبد الغافر الفارسي أنَّه كان يصل الليل بالنَّهار في التحصيل، ويبكر كل يوم قبل الاشتغال بدرس نفسه إلى مسجد أبي عبد الله الخبَّازي، يقرأ عليه القرآن، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يمكنه، مع مواظبته على التدريس، وينفق ما ورثه وما كان يدخل له على المتفقهة، ويجتهد في المناظرة ويواظب عليها، إلى أن ظهر التعصب بين الفريقين، واضطربت الأحوال والأمور.

وهناك اضطرَّ إلى السفر، والخروج من البلد، فذهب مع المشايخ إلى بغداد، يلتقي بالأكابر من العلماء، ويدارسهم، ويناظرهم، حتَّى طار ذكره في الأقطار.

ثم ذهب إلى الأرض المقدسة، وجاور بمكة أربع سنوات، وبهذا لقب «إمام الحَرَمَيْن»، ثمَّ عاد إلى نيسابور بعد ولاية السلطان «ألب أرسلان»، ووزارة «نظام الملك» له. وقد استقرت أمور الفريقين، وانقطع التعصُّب. فبُنيت له «المدرسة النظاميَّة» بنيسابور، وأُقعد للتدريس فيها، وبقي على ذلك قريبًا من ثلاثين سنة غير مزاحَم ولا مدافَع.

ثم ذكر السُّبْكي فصلًا آخر في «ذكر شيء من ثناء أهل عصره عليه»، مثل: الإمام أبي إسحاق الشيرازي، وشيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني، والحافظ أبي محمَّد الجُرْجاني، وقاضي القضاة أبي سعيد الطبري، والفقيه الإمام غانم الموشيلي.

قال أبو إسحاق: «تمتَّعوا بهذا الإمام، فإنَّه نزهة هذا الزمان».

وقال له مرَّةً: «يا مفيدَ أهلِ الشرق والغرب، لقد استفاد من علمك الأوَّلون والآخرون».

QaradawiBooks.com

وقال له أخرى: «أنت اليوم إمامُ الأئمَّة».

وقال الصابوني وقد سمع كلام إمام الحَرَمَيْن في بعض المحافل: «صرف الله المكاره عن هذا الإمام، فهو اليوم قُرَّة عَيْن الإسلام، والذابُّ عنه بحُسْن الكلام».

وقال الجُرْجَاني: «هو إمامُ عَصْرِه، ونسيجُ وحدِه، ونادرةُ دهرِه، وعديم المثل في حفظه وبيانه ولسانه».

وقال أبو سعيد الطبري وقد قيل له: إنَّه لقب «إمام الحَرَمَيْن»: «بل هو إمام خراسان والعراق؛ لفضله وتقدُّمه في أنواع العلوم».

قال: «ونقلتُ من خط ابن الصلاح: أنشد بعض مَن رأى إمام الحَرَمَيْن:

لَمْ تَرَ عَيْنِي أَحَدًا تَحْتَ أَدِيمِ الفَلَكْ
مِثْلَ إِمَامِ الْحَرَمَيْـ ـنِ النَّدْبَ[1] عَبْدِ المَلِكْ»

قال: وروى ابن السمعاني أنَّ إمام الحَرَمَيْن ناظر فيلسوفًا في مسألة «خلق القرآن»، فقذف بالحقِّ على باطله، ودمغه دمغًا، ودحض شُبَهَه دحضًا، ووضح كلامه في المسألة، حتَّى اعترف الموافق والمخالف له بالغلبة.

وقال الأستاذ أبو القاسم القُشَيْري: «لو ادَّعى إمام الحَرَمَيْن اليوم النبوَّة، لاستُغْنِي بكلامه هذا عن إظهار المعجزة»!

(١) قال الزَّبِيدي: والنَّدْبُ: الرجلُ الخفيفُ في الحاجةِ، والسَّريع الظَّريف النَّجيب وكذلك الفرس. وفي الأساس: رجل نَدْبٌ: إذا نُدِبَ ـ أي وُجِّهَ ـ لأمر عظيمٍ خَفَّ له. تاج العروس مادة (ن. د. ب).

QaradawiBooks.com

ثم ذكر فصلًا آخر في «ذكر كلام عبد الغافر الفارسي فيه» مع أنَّ معظمه سبق ذكره، ولكنَّه أعاده قائلًا: «ولا علينا أنْ نكرِّر بعض ما مضى ذكرُه».

وبعد ذلك أضاف فصلًا في «ذكر زيادات أخر في ترجمة إمام الحَرَمَيْن جمعناها من متفرِّقات الكتب»، وأهم ما ذكره هنا ما نقله عن ابن السمعاني بسنده عن الإمام أنه قال: «لقد قرأتُ خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثمَّ خليتُ أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخِضَم، وغصت في الَّذي نهى أهل الإسلام عنه، كل ذلك في طلب الحقِّ...».

وسنذكر هذه المقولة كاملة في حديثنا عن مؤاخذات السُّبْكي للذهبي.

ثم ذكر حكايةً أخرى عن ابن السمعاني رواها بسنده عن الحافظ ابن طاهر، بنص رجوع إمام الحَرَمَيْن عن علم الكلام، ثمَّ قال: «يشبه أنْ تكون هذه الحكاية مكذوبة...».

وسنعرض لذلك فيما بعد.

ثم جاء بعد ذلك فصل الاشتباك مع الذهبي.

ثم ذكر بعد ذلك مناظرات لإمام الحَرَمَيْن، وفوائد ومسائل من علمه، بلغت نحو ثلاث عشرة صفحة.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مؤاخذات السُّبْكي على الذهبي

توقَّف السُّبْكي عند خمسة مقاطع في ترجمة الذهبي لإمام الحَرَمَيْن، هي:

١ ـ كلامه حول علم الله تعالى بالجزئيات.

٢ ـ سؤال الهمذاني، وجواب الإمام.

٣ ـ رجوعه عن تأويل الصفات، بل عن علم الكلام عامة.

٤ ـ مدى درايته بعلم الحديث.

٥ ـ موقف تلامذته بعد موته.

وسنلخص كلًّا منها بحديث مناسبٍ:

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

١

حول علم الله تعالى بالجزئيات

قال الذهبي في هذه القضية: «قال المازري في «شرح البرهان» في قوله ـ أي: قول إمام الحَرَمَيْن ـ: إنَّ الله يعلم الكليات لا الجزئيات: وددت لو محوتها بدمي»[(١)]!

وذلك لأنَّها تنافي ما اتَّفق عليه المسلمون: أنَّ الله يعلم الكليات والجزئيات جميعًا، كما هو صريح آيات القرآن الوفيرة، الَّتي لا تخفى على مسلم، ولهذا كفر علماء المسلمين ـ منذ عهد الغزالي ـ الفلاسفة بثلاثة أشياء أساسية، منها: إنكار العلم الإلٰهي بالجزئيات.

قال السُّبْكي معلِّقًا على الذهبي: «ومن قبيح كلامه قال: وقال المازري... إلى قوله: وددت لو محوتها بدمي».

ونقل كلامًا عن الذهبي لم يقله. هذا نصُّه: «قلت ـ القائل الذهبي ـ: هذه لفظة ملعونة. قال ابن دحية: هي كلمة مكذِّبة للكتاب والسُّنَّة، يكفر بها، هجره عليها جماعة، وحلف القُشَيري لا يكلمه بسببها مدة، فجاور وتاب». انتهى[(٢)].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤٧٢/١٨).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (١٨٨/٥).

QaradawiBooks.com

قال السُّبْكي: «ما أقبحه فصلًا مشـــتملًا على الكذب الصراح! وقِلَّة الحق، مســـتحِلًّا على قائله بالجهل بالعلم والعلمـــاء، وقد كان الذهبي لا يدري «شـــرح البرهان» ولا هذه الصناعة، ولكنَّه يســـمع خرافات من طلبة الحنابلة، فيعتقدها حقًّا، ويودعها تصانيفه.

أمام قوله عن الإمام: قـــال: «إن الله يعلم الكليَّات لا الجزئيات» يقال له: ما أجرأك على الله! متى قال الإمام هـــذا؟ ولا خلاف بين أئمتنا في تكفير مَن يعتقد هذه المقالة، وقد نصَّ الإمام في كتبه الكلامية بأســـرها على كفر مَن يُنكر العلم بالجزئيات، وإنما وقع في «البرهان» في أصول الفقه شـــيء اســـتطرده القلم إليه، فهم منه المازري، ثمَّ أَمِرَ هذا، وذكر ما سنحكيه عنه، وسنجيب عن ذلك، ونعقد له فصلًا مستقلًّا.

وأمَّا قوله: «هذه لفظة ملعونة» فنقول: لعن الله قائلها.

وأما قوله: «قال ابن دِحْيَة» إلى آخر ما حكاه عنه. فنقول: هل تحتاج مثل هـــذه المقالة إلى كلام ابـــن دِحْيَة؟! ولو قرأ الرجل شـــيئًا من علم الكلام لما احتاج إلى ذلك، فلا خلاف بين المسلمين في تكفير منكري العلم بالجزئيَّات، وهي إحدى المسائل الَّتي كفرت بها الفلاسفة.

وأما قوله: «وحلف القُشَيْري لا يُكَلِّمه بسببها مدَّة» فمَن نقل له ذلك؟ وفي أي كتاب رآه؟ وأُقسم بالله يمينًا بارة: إن هذه مختلَقة على القشيري، وقد كان القشـــيري من أكثر الخلق تعظيمًا للإمام، وقدَّمنا عنه قوله في حقِّه: لو ادَّعى النبوة لأغناه كلامه عن إظهار المعجزة!

وابن دحية لا تُقبل روايته؛ فإنَّه مُتَّهم بالوضع على رسول الله ﷺ، فما ظنُّك بالوضع على غيره؟! والذهبي نفسه معترف بأنَّه ضعيف، وقد بالغ

QaradawiBooks.com

في ترجمته في الإزراء عليه، وتقرير أنَّه كذَّاب، ونقل تضعيفه عن الحافظ أيضًا، وعن ابن نقطة، وغير واحـد. وأخبر الناس به الحافظ ابن النجار، اجتمع به وجالسـه، وقال في ترجمته: «رأيت الناس مجمعين على كذبه وضعفه»، قال: «وكانت أمارات ذلك لائحة عليه». وأطال في ذلك.

وبالجملـة لا أعرف محدِّثًـا إلَّا وقـد ضعَّف ابن دحيـة وكذَّبه، لا الذهبي ولا غيره، وكلهم يصفـه بالوقيعة فـي الأئمَّة، والاختلاف عليهم، وكفى بذلك.

وأما قوله: «ونفي بسـببها مدةً مجاوِرًا وتاب» فمن البُهت! لم ينفِ الإمامَ أحدٌ، وإنما هو خرج ومعه القشـيري وخلق فـي واقعة الكندري الَّتي حكيتها في ترجمة الأشـعري، وفي ترجمة أبي سهل ابن الموفَّق، وهي واقعة مشورة خرج بسـببها الإمام والقشـيري، والحافظ البيهقي وخلق، كان سـببها: أنَّ الكندري أمر بلعن الأشعري على المنابر، ليس غير ذلك»[1] انتهى.

وقد قرأنا ما كتبه الذهبي في «النبلاء» فلم نجد فيه هذه العبارات، لم يقل: «هذه لفظة ملعونة»، ولم ينقل شـيئًا عن ابـن دحية في ذلك، كل ما قاله: «هذه هفوة اعتزال، هُجر أبو المعالي بسببها، وحلف أبو القاسم القشيري لا يكلمه، ونفي بسـببها، فجاور وتعبد، وتاب ـ ولله الحمد ـ منها، كما أنه في الآخر رجَّح مذهب السلف وأقرَّه»[2] انتهى.

فلا أدري: هل هناك نسخة أخرى نقل منها السُّبْكي؟ يحتمل. ويكون ما في النسخة المطبوعة المحقَّقة هو آخر ما صاغه الذهبي في القضية، إن

(١) طبقات الشافعية (١٨٨/٥ ـ ١٩٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٧٢/١٨).

QaradawiBooks.com

لم يكن ذلك الكلام مدسوسًا عليه، ففرق بين عبارة: «هذه هفوة اعتزال»، وعبارة: «هذه لفظة ملعونة»، والنقل عن ابن دحية أنَّ قائلها يكفر بها.

وأنا مع السُّبْكي في أنَّ إمام الحَرَمَيْن لم يُنْفَ من أجل ذلك، وإنما خرج ومن معه من أجل الفتنة المذكورة.

ونلاحظ أنَّ الذهبي هنا معتمد على المازري، فالذهبي ليس من علماء الكلام، فهو لا يُحسن هذا العلم، ولا يُواليه، فاعتمد على متكلِّم إمام، وهو في الوقت ذاته أشعري، بل أشعري متعصِّب، كما يقول السُّبْكي نفسه، وهو المازري.

ثم هو حاول أنْ يخفف من صدمة هذا القول، فذكر احتمالًا آخر فيه حين قال: «وقيل: لم يقل بهذه المسألة تصريحًا، بل أُلزم بها؛ لأنَّه قال بمسألة الاسترسال فيما ليس بمتناهٍ من نعيم أهل الجنة. فالله أعلم».

ومن المعلوم: أنَّ القول الصحيح أنَّ العالِم لا يُؤاخذ بلازم مذهبه، فلازم المذهب ليس بمذهب، وخصوصًا إذا وجد ما يُعارضه من مسلَّمات المذهب.

ثم ذكر في «النهاية»: أنه ندم على هذه الكلمة وتاب ـ لله الحمد ـ منها، بل تاب من علم الكلام كله[1]، كما سنذكر بعد.

دفاع السُّبْكي عن الإمام:

قال السُّبْكي: «ثم اعلم أنَّ لهذا الإمام من الحقوق في الإسلام، والمناضلة في الكلام عن الدين الحنيف ما لا يخفى على ذي تحصيل،

(١) سير أعلام النبلاء (٤٧٢/١٨).

QaradawiBooks.com

وقد فهم عنه المازري إنكار العلم بالجزئيات، وأفرط في التغليظ عليه، وأشبع القول في تقرير إحاطة العلم القديم بالجزئيات، ولا حاجة به إليه، فإنَّ أحدًا لم ينازعه فيه، وإنما هو تصوُّر أنَّ الإمام ينازعه فيه.

ومعاذ الله أنْ يكون ذلك.

ولقد سمعت الشيخ الإمام ـ يعني: والده ـ رَحِمَهُ اللَّهُ غير مرة يقول: لم يفهم المازري كلام الإمام، ولم أسمع منه زيادة على هذا. وقلت أنا له رَحِمَهُ اللَّهُ إذ ذاك: لو كان الإمام على هذه العقيدة لم يحتج إلى أنْ يدأب نفسه في «تصنيف النهاية» في الفقه، وفيه الجزئيات لا تنحصر، «والعلم» غير متعلق على هذا التقدير عنده بها.

وقلت له أيضًا: هذا كتاب «الشامل» للإمام في مجلدات عدة في علم الكلام، والمسألة المذكورة حقُّها أنْ تقرر فيه، لا في «البرهان»، فلم لا يكشف عن عقيدته فيه؟! فأعجبه ذلك.

وأقول الآن قبل الخوض في كلام الإمام المازري: لقد فحصتُ عن كلمات هذا الإمام في كتبه الكلامية، فوجدت إحاطة علم الله تعالى عنده بالجزئيات أمرًا مفروغًا منه، وأصلًا مقرَّرًا يُكفِّر من خالفه فيه». اهـ.

وذكر مواضع من كلامه تدل على ذلك من كتابيه: «الشامل» و«الإرشاد».

«وكذلك في «البرهان» في «باب النسخ» صرَّح بأنَّ الله تعالى يعلم على سبيل التفصيل كل شيء.

إذا عرفت ذلك، فأنا على قطع بأنَّه معترف بإحاطة العلم بالجزئيات.

فإن قلتَ: وما بيان هذا الكلام الواقع في «البرهان»؟

QaradawiBooks.com

قلتُ: العالِم من يدعو الواضح واضحًا، والمشكل مشكلًا. وهو كلام مشـــكل، بحيث أبهم أمره على المازري، مع فرط ذكائه وتضلُّعه بعلوم الشريعة، وأنا أحكيه ثمَّ أقرِّره، وأبيِّن لك أنَّ القوم لم يفهموا إيراد الإمام، وأنَّ كلامه المشار إليه مبنيٌّ على إحاطة العلم القديم بالجزئيات، فكيف يؤخذ منه خلافه؟».

قال السُّبْكي: «والذي أراه لنفسي ولمن أحبُّه الاقتصار على اعتقاد أنَّ علم الله تعالى محيط بالكليات والجزئيات، جليلها وحقيرها، وتكفير مَن يخالف في واحد من الفصلين، واعتقاد أنَّ هذا الإمام بريء من المخالفة في واحد منهما، بدليل تصريحه في كتبه الكلامية بذلك، وأنَّ واحدًا من الأشاعرة لم ينقل هذا عنه، مع تتبعهم لكلامه، ومع أنَّ تلامذته وتصانيفه ملأت الدنيا، ولم يُعرف أنَّ أحدًا عزا ذلك إليه، وهذا برهان قاطع على كذب مَن تفـــرَّد بنقل ذلك عنه؛ فإنَّه لو كان صحيحًـــا لتوفَّرت الدواعي على نقله.

ثم إذا عرض هذا الكلام نقول: هذا مشكل، نضرب عنه صفحًا، مع اعتقـــاد أنَّ ما فهم منه مـــن أنَّ العلم القديم لا يحيـــط بالجزئيات ليس بصحيح»[1].

وأعتقد أن هذا الكلام يكفي في الدفاع عن إمام الحَرَمَيْن، وإن كان السُّبْكي قد استرسل وأفاض في الدفاع عنه ـ على طريقة المتكلِّمين ـ بما لا حاجة لنا إليه.

* * *

(١) طبقات الشافعية (٥/١٩٣ ـ ١٩٦).

QaradawiBooks.com

٢

سؤال الهمذاني وجواب الإمام

ومن أبرز ما اعترض عليه السُّبْكي هنا ما ذكره الذهبي وكرَّره مرتين في ترجمته من سؤال المحدِّث أبي جعفر الهمذاني لإمام الحَرَمَيْن، وتحيُّره في الإجابة عنه!

نقل ذلك الذهبي عن الحافظ محمَّد بن طاهر قال: «حضر المحدِّث أبو جعفر الهمذاني مجلس وعظ أبي المعالي، فقال: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان عليه. فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضَّرورة الَّتي نجدها: ما قال عارف قط: يا الله، إلَّا وجد ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟! أو قال: فهل عندك دواء لدفع هذه الضرورة الَّتي نجدها؟! فقال: يا حبيبي، ما ثمَّ إلَّا الحيرة! ولطم على رأسه، ونزل. وبقي وقت عجيب.. وقال فيما بعد: حيَّرني الهمذاني!»[1].

وقد أعاد الذهبي هذه القصة بإسنادٍ آخر، وبصيغة مقاربة، قال: «أخبرنا يحيى بن أبي منصور الفقيه في كتابه، عن عبد القادر الحافظ، أخبرنا أبو العلاء الهمذاني، أخبرني أبو جعفر الحافظ: سمعت أبا المعالي وسُئل عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فقال: كان

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٧٤، ٤٧٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الله ولا عرش. وجعل يتخبَّط، فقلت: هل عنـدك للضَّرورات من حيلة؟ فقال: ما معنى هذه الإشارة؟ قلت: ما قال عارف قط: يا رباه! إلَّا قَبْل أنْ يتحرك لسانه قام من باطنه قصدٌ لا يلتفت يمنة ولا يسرة، يقصد الفَوق، فهل لهذا القصد الضـروري عندك من حيلة فتُنبئنـا نتخلص من الفوق والتحت؟! وبكيـتُ وبكى الخلق، فضرب بكمِّه على السـرير، وصاح بالحيرة، ومزَّق ما كان عليه، وصارت قيامة في المسـجد، ونزل يقول: يا حبيبي! الحيرة الحيرة، والدهشة الدهشة!»[1].

قال السُّـبْكي: «قلت: قد تكلَّف لهذه الحكاية وأسندها بإجازة على إجازة، مع ما في إسـنادها ممن لا يخفى مَحاطُّه على الأشعري، وعدم معرفته بعلم الكلام.

ثم أقول: يا لله ويا لَلمسلمين! أيقال عن الإمام أنه يتخبط عند سؤال سأله إياه هذا المحدث، وهو أسـتاذ المناظرين، وعَلَم المتكلِّمين؟! أو كان الإمام عاجزًا عن أنْ يقول له: كذبتَ يا ملعون، فإنَّ العارف لا يحدث نفسَه بفوقية الجِسْمية، ولا يحدِّد ذلك إلَّا جاهل يعتقد الجِهَة!

بل نقول: لا يقول عارف: يا ربَّـاه، إلَّا وقد غابت عنه الجهات، ولو كانت جهة فوق مطلوبة لما مُنِع المصلي من النظر إليها، وشُدِّد عليه في الوعيد عليها.

وأما قوله: «صاح بالحيرة» وكان يقـول: «حيَّرني الهمذاني» فكذب ممن لا يستحي، وليت شعري! أي شـبهة أوردها؟! وأي دليل اعترضه حتَّى يقول: حيَّرني الهمذاني؟!

(١) سير أعلام النبلاء (٤٧٧/١٨).

QaradawiBooks.com

ثم أقول: إنْ كان الإمام متحيِّرًا لا يــدري ما يعتقد، فواهًا على أئمَّة المسلمين من سنة ثمان وســبعين وأربعمائة إلى اليوم؛ فإنَّ الأرض لم تُخرج من لدن عهده أعرف منه بالله ولا أعرف منه! فيا لله ماذا يكون حال الذهبي وأمثالــه إذا كان مثل الإمام متحيِّــرًا؟! إنَّ هذا لخزي عظيم، ثمَّ ليت شــعري! مَن أبو جعفر الهمذاني في أئمَّة النظر والكلام؟! ومَن هو من ذوي التحقيق من علماء المسلمين؟!

ثم أعــاد الذهبــي الحكاية عــن محمَّد بن طاهر، عــن أبي جعفر، وكلاهما لا يُقبل نقله، وزاد فيها أنَّ الإمــام صار يقول: يا حبيبي، ما ثمَّ إلَّا الحيرة. فإنا لله وإنــا إليه راجعون! لقد ابتلي المســلمون من هؤلاء الجهلة بمصيبة لا عزاء بها»[1] انتهى.

وأقــول: إنَّ الذهبــي رجل مــؤرخ، وهــو يعتمد ـ كســائر الحفاظ والمؤرخين المسلمين ـ على الرواية بالأسانيد، فهو لا يُلقي الكلام على عواهنه، وإنما يسنده إلى أهله ممن عاصر أو شاهد أو سمع.

وظنــي أنَّ الحكاية لا بدَّ أنْ يكــون لها أصل، ولكــن ربما وقعت المبالغة في وصف التفاصيل.

إذ يصعب على المرء أنْ يصدق أنَّ مثل إمام الحَرَمَيْن النظار المتكلم المناظر البليــغ المتمكن، الَّذي لــم يكن يتلعثم فــي درسٍ أو مناظرةٍ: يتخبط أمام سؤال من معارضٍ، أو يلطم على رأسه، أو يصيح بالحيرة!

وقد كان يمكن أنْ يقول للســائل: أنا أنازع فيما تقول، إنَّ ما تدعوه بأنَّه ضــرورة ليس ضرورة، وإنما هــو عادة، يتلقنها الأبنــاء عن الآباء، والخلف عن السلف، وربما توجد أمم لا تفعل ذلك.

(١) طبقات الشافعية (٥/١٩٠، ١٩١).

QaradawiBooks.com

وقد يمكن أنْ يقول: إنَّ التَّوجه إلى السماء أو إلى العلو، لا يعني أنَّ الله في السماء بمعنى أنه محصور فيها، ولكن الخالق الأعظم للكون لا يمكن أنْ يوصف إلَّا بأنَّه الأعلى، وأنه فوق الكون، وأن الكون في جهة السفل والتحت.

وهذا ما نُقل عن والده الإمام أبي محمَّد الجُوَيني في رسالة «إثبات الاستواء والفوقيَّة» المنشورة في «مجموعة الرسائل المنيريَّة» (ج١: ١٧٤ ـ ١٨٧)، وفيها يثبت لله تعالى الاستواء والفوقية، كما يليق بكماله، وكما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وهو ما اقتبسه منه من بعده، ووضحه العلامة الواسطي الشافعي الصوفي ـ الَّذي كان يُسميه ابن تيمية «جنيد زمانه»، وكان معاصرًا له (ت: ٧١١هـ)، وذلك في رسالة «النصيحة» ـ ورضيه السلفيون، ونقل العلامة السفاريني عنه ذلك في «شرح عقيدته»، والسيد رشيد رضا في تفسير «المنار».

على أنَّ الرجل ـ إمام الحَرَمَيْن ـ قد ترقَّى عن ذلك كله، وارتضى مذهب السلف منهاجًا له، كما يتجلَّى ذلك في الفقرة التالية، ولله الفضل والمنة.

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

٣

رجوعه عن التأويل وعلم الكلام

لعلَّ أظهر ما اشتُهر به إمام الحَرَمَيْن عند الناس هو: علم الكلام، فهو أبرز أشعري بعد الأشعري، بل هو الَّذي وُصِف بأنه: «إذا تكلم فالأشعري شعرة من وفْرَته!»، وهو المؤسس الثاني للمذهب الأشعري.

ومن هنا كان أول ما نشر من كتبه: الكتب الكلامية، مثل: «الشامل» و«الإرشاد» و«النظاميَّة» و«اللمع».

وتأخر نشر كتابه «البرهان» في أصول الفقه، و«الغياثي» في السياسة الشرعية عنها، أما كتابه الَّذي توفَّر عليه في أواخر سني عمره، وهو: «نهاية المطلب في دراية المذهب» فلم ير النور بعد، ويوشك أنْ يكون ـ بفضل الله تعالى ثمَّ بجهد أخينا الدكتور عبد العظيم الديب، شكر الله سعيه، وبارك جهده.

كان إمام الحَرَمَيْن أشعريًّا قُحًّا في أول أمره، محاميًا عن الأشعرية، كما عرفت عند الناس، لا كما جاء عن الأشعري في عدد من كتبه، ولا سيما «الإبانة في أصول الديانة» الَّتي حققتها الدكتورة فوقية محمود، و«رسالة أهل الثغر» الَّتي حقَّقها أخونا الدكتور محمَّد الجَلَيْند.

وقد ذكر الإمام الذهبي موقفًا لإمام الحَرَمَيْن في الدفاع عن موقف الأشعرية في قضية «أفعال العباد»، ومن المعلوم للدارسين أن موقف

QaradawiBooks.com

الأشـــعري في ذلك من أضعف المواقـــف، حتَّى ضُرِب بـــه المثل في الخفاء، فقيل: أخفى من كســـب الأشـــعري! وقيل: ثلاثـــة من محالات الكلام: طفرة النظَّام، وكسب الأشعري، وأحوال أبي هاشم[1].

والعجيب أنَّ السُّـــبْكي لم يعقِّب على هذا الموقف، مع أنه لم يَدَعْ شيئًا من هذا اللون ممَّا ذكره الذهبي إلَّا تعقَّبه بعنفٍ، بل بتجريح!

والحق أنَّ من الفضائل الَّتي تميَّز بها إمام الحَرَمَيْن، وتبدو لكل مَن درس حياته وتراثه بلا تعصُّبٍ له ولا عليه: الإخلاص في طلب الحقيقة، عن طريق العقل الناقد، والشرع الضابط، فإذا كشفت له الحقيقة قناعَها، ومدَّت له شـــعاعها، بـــادر إلى الإيمان بهـــا واعتناقهـــا، والإعلان عنها بشـــجاعةٍ لا نظير لها، وإن كانت مخالفةً لما عليه الجمهور، أو ما عليه المذهب، وما مضى عليه دهرًا من حياته، وقضى سنين عددًا وهو يدرسه ويُصنِّف فيه، ويذود عنه، ويحثُّ على اتباعه.

وهذا واضح في مذهبه «العقدي» أكثـــر منه في مذهبه الفقهي، فمن المعروف والمشهور: أنَّ إمام الحَرَمَيْن كان من كبار متكلمي الأشاعرة، المؤوِّلين لآيات الصفات وأحاديثها، المدافعين عن التأويل. وقد برز في «علم الكلام» واشـــتُهر به، وصنَّف فيه التصانيف الَّتي ســـارت بذكرها الركبان، مثل: «الشامل» و«الإرشاد» و«اللُّمَع» و«النظاميَّة» وغيرها، وأخذ عنه هذا العلـــم كثيرون من تلاميـــذه النوابغ. وكان يتكلَّـــف في تأويله والدفاع عن مذهبه الأشـــعري إلى حد الاعتساف أحيانًا، الَّذي لا يرضاه المنصفون. وهذا شأن البشر.

(١) انظر: المنتقى من منهاج الاعتدال للذهبي صـ ٥١ ـ ٥٢، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ط ٣، ١٤١٣هـ.

QaradawiBooks.com

وقد ذكر مؤرِّخ الإسلام الحافظ الذهبي في «سير الأعلام» ما جرى بينه وبين أبي القاسم بن بَرهان من مناظرة في «أفعال العباد»، وهو ما نقله عن العلامة الحنبلي ابن عقيل في «فنونه»، قال: «قال عميد الملك: قدم أبو المعالي، فكلَّم أبا القاسم بن بَرهان في العباد: هل لهم أفعال؟ فقال أبو المعالي: إن وجدت آية تقتضي ذا، فالحجة لك، فتلا: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، ومدَّ بها صوته، وكرَّر: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]. أي: كانوا مستطيعين، فأخذ أبو المعالي يستروح إلى التأويل. فقال ـ أي: ابن بَرهانَ ـ: والله إنك بارد! تتأوَّل صريح كلام الله لتصحِّح بتأويلك كلام الأشعري! وأكله ابن برهان ـ أي: أعياه ـ بالحُجة، فبُهِت»[(١)].

هكذا كان أبو المعالي إمام الحَرَمَيْن، دهرًا من حياته، ولا غرو أن اعتبره بعض الباحثين المؤسِّس الثاني للمذهب الأشعري، وكتب أستاذنا الشيخ علي جبر في كلية أصول الدين رسالة الأستاذية له عن «إمام الحَرَمَيْن باني الأشعرية الحديثة»، وإنْ لم نرها مطبوعة.

ولكن الله شرح صدره للحق، فوجدناه في أواخر حياته قد غيَّر نهجه، ورجع عن طريق التأويل ـ طريق الخلف ـ إلى طريق السلف في ترك الخوض، والانكفاف عن التأويل، ولم يستنكفْ عن إعلان ذلك بكل صراحة وجلاء، وهو ما ذكره في «الرسالة النِّظامية في الأركان الإسلاميَّة»[(٢)].

(١) سير أعلام النبلاء (٤٦٩/١٨).

(٢) طبعت في القاهرة بتحقيق المحدِّث الفقيه الحنفي المعروف الشيخ محمد زاهد الكوثري. وقد طبعت تحت عنوان: العقيدة النظامية. ويبدو أنَّ الذي طُبع منها فقط هو جانب العقيدة، وهو ما وجد منها، إذ لم يعثر على باقيها إلى الآن.

QaradawiBooks.com

قال إمام الحَرَمَيْن: «اختلفت مسالك العلماء في الظواهر الَّتي وردت في الكتاب والسُّـنَّة، وامتنع على أهل الحق فحواهـا، وإجراؤها على موجب ما يبرزه أفهام أرباب اللسان فيها.

فرأى بعضهم تأويلها، والتزام ذلك في القرآن، وما يصح من السنن، وذهب أئمَّة السـلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجـراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى. والذي نرتضيه رأيًا، وندين الله به عقدًا: اتِّباع سلف الأُمَّة، فالأَوْلى الاتباع، وترك الابتداع. والدليل السمعي القاطع في ذلك: أنَّ إجماع الأُمَّة حجة متَّبَعة، وهو مستنَد معظم الشريعة، وقد درج صحب الرسول ﷺ على ترك التعرُّض لمعانيها ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام المستقلُّون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهدًا فـي ضبط قواعـد المِلَّـة، والتواصـي بحفظها، وتعليـم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسـوغًا أو محتومًا؛ لأوشك أنْ يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، فإذا تصرَّم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل؛ كان ذلك قطعًا بأنَّه الوجه المتَّبع.

فحُق علـى ذي الدين أنْ يعتقد تنزُّه الباري عـن صفات المحدَثين، ولا يخوض في تأويل المشـكلات، ويكل معناها إلى الرب. وعند إمام القُرَّاء وسـيِّدُهم الوقف علـى قوله تعالـى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] مـن العزائم، ثمَّ الابتداء بقولـه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، ومما استُحسـن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طـه: ٥] فقـال: الاسـتواء معلـوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عنه بدعة.

QaradawiBooks.com

فليجر آية الاستواء والمجيء[١]، وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره، على ما ذكرناه، فهذا بيان ما يجب لله»[٢].

ونقل الحافظ الذهبي عن الفقيه غانم الموشيلي قال: «سمعت الإمام أبا المعالي يقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما اشتغلت بالكلام»[٣].

وقال الذهبي: «قال الحافظ محمَّد بن طاهر: سمعتُ أبا الحسن القيرواني الأديب ـ وكان يختلف إلى درس الأستاذ أبي المعالي في الكلام ـ فقال: سمعت أبا المعالي اليوم يقول: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلتُ به»[٤].

وقد علَّق السُّبْكي على هذا القول فقال: «يُشبه أنْ تكون هذه الحكاية مكذوبة على إمام الحَرَمَيْن، وابن طاهر عنده تحامُل على إمام الحَرَمَيْن، والقيرواني المشار إليه: رجل مجهول».

ولكن يعكر على هذا ما نقله الموشيلي عنه، ولم يتعقَّبْه السُّبْكي، ثمَّ الأقوال الأخرى لإمام الحَرَمَيْن في رجوعه إلى طريق السلف تؤكد صحة هذه الرواية. كما أن روايات الحفاظ لا تسقط بمثل التُّهَم الَّتي ذكرها السُّبْكي، وأي تحامل على إمام الحَرَمَيْن في هذه الرواية؟! بل فيها ما يرفع من قدره.

---

(١) آية المجيء قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

(٢) العقيدة النظامية صـ ٣٢ ـ ٣٤، تحقيق محمد زاهد الكوثري، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م. وقد نقل هذا النص الذهبي في الأعلام (٤٧٣/١٨، ٤٧٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٧٣/١٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٧٤/١٨)، وطبقات السبكي (١٨٦/٥).

QaradawiBooks.com

وحكى الفقيه أبو عبد الله الحسن بن العباس الرُّسْتُمي، قال: «حكى لنا أبو الفتح الطبري الفقيه قال: دخلتُ على أبي المعالي في مرضه، فقال: اشهدوا عليَّ أنِّي قد رجعتُ عن كل مقالةٍ تُخالف السُّنَّة، وأنِّي أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور»[١].

وقد أقر السُّبْكي هذه الرواية، ولم يعترض عليها.

قال الذهبي: «وقرأت بخط أبي جعفر «محمد بن أبي علي»: سمعتُ أبا المعالي يقول: قرأتُ خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثمَّ خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصتُ في الَّذي نهى أهل الإسلام عنه، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بِرِّه، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص: لا إلٰه إلَّا الله، فالويل لابن الجُوَيني»[٢] يعني نفسه!

يقصد بالذي نهى عنه أهل الإسلام: علم الكلام، فقد نهى عنه إمامه الشافعي، ونهى عنه مالك وأحمد، وغيرهم من الأئمَّة.

ويبدو أنه تأوَّل كلام أهل الإسلام أنهم نهَوْا مَن يُخاف عليه السباحة في هذا البحر الخِضَم، ويُخشى عليه من الغرق، وهو يرى نفسه أقوى من ذلك.

كما قصد بتخلية أهل الإسلام وعلومهم الظاهرة: أنه دخل في العلوم العقلية والفلسفية، وتغلغل فيها، ولم يشتغل بالعلوم النقلية من الحديث والآثار ونحوها، كما اشتغل بها غيره.

(١) سير أعلام النبلاء (٤٧٤/١٨)، وطبقات السبكي (١٩١/٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٧١/١٨)، وطبقات السبكي (١٨٥/٥).

QaradawiBooks.com

وهذا القول من هذا الإمام الكبير الَّذي أنفق عمره في هذا اللون من الثقافة العقلية الَّتي امتزجت بفلسفة اليونان وجدليَّاتهم، الَّتي لا تنقع غليلًا، ولا تهدي سبيلًا.. هذا القول يؤكد أن لا طريق أهدى ولا أجدى من طريقة القرآن في تأسيس العقيدة، وهي الأقرب إلى الفطرة، والألصق بالعقل والوجدان، وهو ما كان عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان. وإنما يُستفاد من «علم الكلام» في الدفاع عن العقيدة في مواجهة المخالفين من أصحاب الأديان والفلسفات الأخرى، والفرق المبتدعة.

وهو ما وضَّحه من بعدُ تلميذُه حجة الإسلام الغزالي، حين بيَّن أنَّ علم الكلام: علم محدَث، أريد به حراسة عقائد العوام من تشويش المبتدعة.

وقال في «الإحياء»: «اعلمْ أنَّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلَّة الَّتي يُنتفع بها، فالقرآن والأخبار ـ أي الأحاديث ـ مشتملة عليه. وما خرج عنهما فهو إمَّا مجادلة مذمومة، وهي من البدع. وإمَّا مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفِرَق لها، وتطويل بنقل المقالات الَّتي أكثرها تُرَّهات وهذيانات تزدريها الطباع، وتمجُّها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلَّق بالدين، ولم يكن شيء منه مألوفًا في العصر الأول، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع، ولكن تغيَّر الآن حكمه، إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسُّنَّة، ونبتت جماعة لفَّقوا لها شُبَهًا، ورتَّبوا فيها كلامًا مألوفًا، فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذونًا فيه، بل صار من فروض الكفايات. وهو القدر الَّذي يقابَل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة، وذلك إلى حدٍّ محدود»[1].

(١) إحياء علوم الدين (٢٢/١، ٢٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

QaradawiBooks.com

فلا غرو أنْ يُروى عن إمام الحَرَمَيْن ما يــروي من البراءة من «علم الكلام» والعودة إلى طريقة القرآن.

وقد اجتهد العلامة تاج الدين السُّبْكي في «طبقاته الكبرى» أنْ ينحو بهذا الكلام الجلي الواضح من إمــام الحَرَمَيْن منحى آخر غير ما يتبادر منه، دفاعًــا منه عن «علم الــكلام» الموروث، ووجَّــه كلام هذا الإمام العظيم الشجاع المخلص إلى معانٍ متكلَّفةٍ لا ينشرح لها الصدر.

وتحامَل السُّبْكي على شيخه الإمام الذهبي تحاملًا لا يُقبل من مثله في مثله. فالواقع أنِّي ما رأيتُ مؤرِّخًا منصِفًا مثل الذهبي، حتَّى مع أعلام المعتزلة وأمثالهم.

علــى أنَّ إمــام الحَرَمَيْن ليس هــو وحده الَّذي انتهــى إلى رفض التأويل، وترجيح مذهب السلف، وتفويض حقائق هذه الألفاظ ومعانيها إلى الله تعالى.

فقد رجع من قبله شــيخه أبو الحسن الأشــعري في كتابه «الإبانة»، وفي «رســالته إلى أهل الثغر»، وغيرهما، ورجع من بعده تلميذه حجة الإســلام أبو حامد الغزالي، وذلك فــي كتابه: «إلجام العــوام عن علم الكلام».

ولكن موقف شيخه إمام الحَرَمَيْن كان أصرح وأوضح، فإنَّ الغزالي اعتبر علم الكلام شأن الخواصِّ، وجمهرة العلماء من الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين والمتكلِّمين وغيرهم يُعتبــرون من العوام في هذا الأمر عند الغزالي.

أما الخواصُّ، فقد يوجد في كل عصر منهم واحد أو اثنان.

QaradawiBooks.com

ورجع بعد ذلك الفخر الرازي، الَّذي كان من أكبر المحامين المدافعين عن التأويل، وصنَّف فيه أكثر من كتاب، مثل: «تأسيس التقديس» وغيره. ثمَّ قال في الطور الأخير من حياته العلميَّة: «لقد تأمَّلتُ الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ومَن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[(١)]!

وجاء في «طبقات الشافعيَّة» لابن قاضي شهبة ما نصه: «قال ابن الصلاح: أخبرني القطب الطوغاني مرتين: أنه سمع فخر الدين الرازي يقول: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام! وبكى»[(٢)].

قال الإمام الشوكاني في «إرشاد الفحول»: «وهؤلاء الثلاثة ـ أعني: الجُوَيني والغزالي والرازي ـ هم الَّذين وسَّعوا دائرة التأويل، وطوَّلوا ذيوله، وقد رجعوا آخِرًا إلى مذهب السلف كما عرفت، فلِلَّه الحمد، كما هو أهله»[(٣)].

على أنَّ إمام الحَرَمَيْن لم يكتفِ بالرجوع إلى مذهب السلف نظريًّا، بل حث الأئمَّة والمسؤولين عن قيادة الأُمَّة ـ والمحافظة على الدين أول واجباتهم ـ أنْ يجعلوا مذهب السلف ونهجهم في تعلُّم التوحيد هو ما ينبغي أنْ يعلَّم للكافَّة.

(١) سير أعلام النبلاء (٥٠١/٢١).

(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (٦٥/٢)، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

(٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني (٤٩/٢)، تحقيق د. شعبان محمد إسماعيل، نشر دار الكتبي، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

QaradawiBooks.com

أكَّد في «الغياثي» أنَّ الَّذي يحــرص الإمام عليه: «جمع عامة الخلق على مذهب الســلف الســابقين قبل أن نبغت الأهواء، وزاغت الآراء، وكانوا ﷺ ينهَوْن عن التعــرُّض للغوامض، والتعمُّق في المشــكلات، والإمعان في ملابســة المعضِلات، والاعتناء بجمع الشــبهات، وتكلُّف الأجوبة عما لم يقع من السؤالات، ويرون صرف العناية إلى الاستحثاث على البر والتقوى، وكفِّ الأذى، والقيام بالطاعة حســب الاســتطاعة، وما كانوا ينكَفُّون ﷺ عما تعرَّض له المتأخِّرون عن عيٍّ وحصر، وتبلُّد في القرائح. هيهات!

فقد كانوا أذكى الخلائق أذهانًا، وأرجحهم بيانًا، ولكنَّهم استيقنوا أنَّ اقتحام الشبهات داعية الغوايات، وسبب الضلالات، فكانوا يُحاذرون في حقِّ عامَّة المســلمين ما هم الآن به مبتلَوْن، وإليه مدفوعُون، فإن أمكن حمل العوام على ذلك فهو الأسلم»[(١)].

ونعم ما أوصى به هذا الإمام:

فكل خيرٍ في اتِّباع مَن سلف وكلُّ شرٍّ في ابتداعِ مَنْ خَلَفْ[(٢)]

* * *

(١) انظر: الغياثي للجويني صـ ١٩٠، ١٩١، فقرة (٢٨٠)، تحقيق د. عبد العظيم الديب، نشر الشؤون الدينية، قطر، ط١، ١٤٠٠هـ.

(٢) جوهرة التوحيــد للقاني، انظر: شــرح الصاوي على جوهــرة التوحيد صـــ ٤٣٦، تحقيق د. عبد الفتاح البزم، نشر دار ابن كثير، دمشق.

QaradawiBooks.com

٤

إمام الحَرَمَيْن وعلم الحديث

عُرف إمام الحَرَمَيْن بالتقدُّم والإمامة في عددٍ من العلوم الإسلاميَّة، مثل: أصول الدين، وأصول الفقــه، والفقه، والخلاف، ولكن لم يكن له قدم راسخة في الحديث وعلومه، وسبحان مَن وزَّع المواهب.

وقد عبَّر عن هذا الجانب مؤرخو الإمــام، والمعقِّبون عليه بعبارات مختلفة، مغزاها كلها: أنه لم يكن من أهل هذا الشأن.

قال ذلك الســمعاني في «أنســابه»: «كان قليــل الرواية للحديث، معرِضًا عنه»[(١)].

وقال ياقوت في «معجم البلدان» نفس ما قاله السمعاني[(٢)].

وقــال الحافظ ابن حجر فــي «التلخيص» في تعليقه علــى ما قاله إمام الحَرَمَيْن حول ثبوت الطمأنينة في الاعتدال: «وهو من المواضع العجيبة الَّتي تقضي على هذا الإمام بأنَّه كان قليل المراجعة لكتب الحديث المشــهورة، فضلًا عن غيرها، فإن ذكر الطمأنينة في الجلوس ثابت في الصَّحيحين»[(٣)].

(١) الأنساب (٤٣١/٣)، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط١، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م.

(٢) معجم البلدان (١٩٣/٢)، نشر دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

(٣) التلخيص الحبير (٤٦٢/١)، تحقيق حسن بن قطب، نشر مؤسسة قرطبة، مصر، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

وقال نحوه من قبله ابن الصلاح في «الفتاوى الحديثية» وهو ـ كابن حجر ـ من الشافعيَّة المرموقين.

ولعل أشد العبارات في ذلك هي عبارة الإمام الذهبي في «أعلام النبلاء»، حيث قال: «كان هذا الإمام مع فرط ذكائه، وإمامته في الفروع وأصول المذهب، وقوة مناظرته: لا يدري الحديث كما يليق به، لا متنًا ولا إسنادًا. ذكر في كتاب «البرهان»[1] حديث معاذ في القياس، فقال: هذا مدوَّن في الصحاح، متفق على صحته. قلت ـ والقائل الذهبي ـ: بل مداره على الحارث بن عمرو، وفيه جهالة، عن رجال من أهل حمص، عن معاذ، فإسناده صالح»[2] اهـ.

وقد أغضبت هذه العبارة أخانا الدكتور عبد العظيم الديب، محقِّق كتب الإمام ـ كما في مقدمة تحقيقه لـ «الدرة المضية» لإمام الحَرَمَيْن ـ كما أغضبت من قبله العلَّامة تاج الدين السُّبْكي في «طبقاته الكبرى».

والعبارة فيها شدة ولا ريب، ولكن لا إلى الحد الَّذي أغضب الشيخ السُّبْكي والدكتور الديب، فقد قيَّد الذهبي قوله بأنه: «لا يدري الحديث كما يليق به»، سواء كان هذا الضمير للحديث، أم للإمام نفسه، أي: لا يدريه على الوجه اللائق بهذا العِلْم أو بهذا الإمام.

وهذا حق لا أحسب أنَّ إمام الحَرَمَيْن نفسه ينكره. وقوله عن حديث معاذ ما قال، لا يتفق مع ما قرَّره أهل الحديث إلَّا بتأويل وتكلُّف. وقد رأيناه في كثير من الأحيان يستدلُّ بأحاديث ضعيفة، بل

(١) البرهان في أصول الفقه (٧٧٢/٢)، فقرة (٧٢٠)، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب، ط١، ١٣٩٩هـ، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر الأسبق.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤٧١/١٨، ٤٧٢).

QaradawiBooks.com

شديدة الضعف، حتَّى في «الأصول»[١]، وأحاديث لا يعرفها المحدِّثون أنفسهم، وقد يعزو الحديث إلى غير مَن أخرجه، أو إلى غير صحابيه، إلى آخره.

وفي رأيي: أنَّ الرجل غني عن هذا كلـه، فهو ـ بلا نزاع ـ ليس من المدرسـة الحديثية النقلية، بل هو من المدرسـة الَّتي تجمع بين العقل والنقل، وكلامه نفسـه رضي الله عنه يدل على هذا بوضوح وصراحة. وقد رد هو والباقلَّاني من قبله والغزالي من بعده: حديث: «**لأزيدنَّ على السـبعين**» في الاسـتغفار لابن أبيٍّ، وهو متَّفق عليه[٢]؛ لاعتقادهم أنه ينافي الفهم الصحيح لآية: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٨٠][٣]، لنقرأ له هذه العبارة في «البرهان» يقول وهو يناقش تحمُّل الرواية وجِهة تلقيها: «ولو عرض ما ذكرناه على جملة المحدثين لأبَوْه... وهم عصبة لا مبالاة بهم في حقائق الأصول، وإذا نظر الناظر في تفاصيل هذه المسـائل صادفها خارجةً في الرد والقبول على ظهـور الثقة وانخرامها، وهذا هو المعتمد الأصولي، فإذا صادفناه لزمنـاه، وتركنا وراءه المحدِّثيـن يتقطَّعون في وضع ألقاب، وترتيب أبواب»[٤].

---

(١) كاستدلاله بحديث: «**أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم**». البرهان (١٣٥٨/٢)، فقرة (١٥٤٨)، وقد ضعفه ابن حزم، وابن عبد البر، وغيرهما، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٨): «موضوع». واستدلاله بحديث: «اختلاف أمتي رحمة». الغياثي صـ ١٨٩، فقرة (٢٧٧)، والحديث لم يعرف له سـند. وقد افترض إمـام الحرمين في الغياثي اندراس الشـريعة، وانقـراض حملتها تمامًا، وبنى على ذلـك أحكامًا، وهو مخالف لأحاديـث «بقاء الطائفة المنصورة» التي صحَّت واشتهرت واستفاضت عن عدد من الصحابة، وربما تواترت.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٦٧٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٠)، عن ابن عمر.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر (٣٣٧/٨ ـ ٣٣٨)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٤) البرهان (٦٤٨/١ ـ ٦٤٩) فقرة (٥٩٢)، وفقرة (٥٩٣).

QaradawiBooks.com

فهـذه نظرته إلـى «المحدِّثين»: «عصبـة لا مبالاة بهـم في حقائق الأصول»، وهـو لا يعبأ أنْ يتركهـم وراءه يتقطَّعون فـي وضع ألقاب، وترتيب أبواب!

على أنَّ هذا ـ عدم دراية الحديث كما يليق بـه ـ ليس خاصًّا بإمام الحَرَمَيْن، بل هو عام في فحول المدرسة الأشعرية كلها.

فهكذا كان الأشـعري والباقلَّاني مـن قبل، وكذلـك كان الغزالي والرازي والآمدي وغيرهم من بعد.

وربما أغناه عـن العناية بالحديـث رجال نذروا أنفسـهم لخدمته، وهيَّأهم الله لذلك، وخصوصًا من الشافعيَّة، وكلٌّ مُيسر لما خلق له.

وقد كان في عصر إمام الحَرَمَيْن مـن هؤلاء أمثال: الحافظ المتقن الكبير أبي بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) صاحب «السنن الكبرى» و«معرفة السـنن والآثار» و«جامع شـعب الإيمان»، وغيرها من الموسوعات، والذي قال فيه إمام الحَرَمَيْن نفسه: «ما من شـافعي إلَّا وللشافعي في عنقه مِنَّة، إلَّا البيهقي؛ فإنَّه له على الشـافعي منة؛ لتصانيفه في نصرته لمذهبه وأقاويله»[1].

* * *

(١) طبقات الشـافعية للسـبكي (١٠/٤، ١١). وقد وقع للبيهقي مع والد إمام الحرمين الشـيخ أبو محمد حادثة معروفة حين شـرع في تأليف كتاب: المحيط، الذي عـزم فيه ألا يتعبَّد بالمذهب، وإنما يعتمد على الأحاديث، وأصدر منه ثلاثة أجزاء اطلع عليها البيهقي، وكتب له رسالة يبيِّن له فيها أوهامه وأغلاطه فيما استند إليه من حديث، فشكر له الشيخ، وأعرض عن تكميل الكتاب. انظر: طبقات الشافعية للسبكي (٧٦/٥، ٧٧).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

٥
موقف تلامذة إمام الحَرَمَيْن عند موته

والمقطع الخامس الَّذي اعترض عليه السُّبْكي من ترجمة إمام الحَرَمَيْن في سير أعلام الذهبي: هو ما علَّق به على موقف تلاميذه عند موته، وقد كانوا نحو أربعمائة طالب علم.

فقد ذكروا أنهم كسروا منبره «الذي كان يخطب عليه»، كما كسروا محابرهم وأقلامهم! وأقاموا حولًا، ووضعت المناديل عن الرؤوس عامًا، بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه، وكانت الطلبة يطوفون في البلد نائحين عليه، مبالغين في الصياح والجزع!

قال الذهبي: «قلت: هذا كان من زي الأعاجم، لا من فعل العلماء المتَّبعين»[1].

أغضب هذا التعليق التاج السُّبْكي، وقال: «قد حار هذا الرجل: ما الَّذي يُؤذي هذا الإمام؟! وهذا لم يفعله الإمام، ولا أوصى به أنْ يُعمل، حتَّى يكون غضًّا منه، وإنما حكاه الحاكون إظهارًا لعظمة الإمام عند أهل عصره، وأنه حصل لأهل العلم على كثرتهم ـ فقد كانوا نحو أربعمائة تلميذ ـ ما لم يتمالكوا معه الصبر، بل أداهم إلى هذا الفعل.

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/٤٧٦).

نسخة تجريبية

QaradawiBooks.com

ولا يخفى أنه لو لم تكن المصيبة عندهم بالغة أقصى الغايات لما وقعوا في ذلك».

قال: «وفي هذا أوضح دلالة لمن وفَّقه الله على حال هذا الإمام رضي الله عنه، وكيف كان شأنه فيما بين أهل العلم في ذلك العصر المشحون بالعلماء والزُّهَّاد»[1] اهـ.

ترى هل أخطأ الإمام الذهبي في تعقيبه على فعل هؤلاء الطلبة، وتجاوز حدَّه، أو قال ما ينبغي أنْ يقوله العالم الناصح لله ورسوله وللمسلمين؟

الذي أراه أنَّ الذهبي لم يحِد عن الصواب فيما علَّق به، بل لو لم يفعل لكان ملومًا في نظري، فإنَّ القارئ العادي الَّذي يقرأ مثل هذه الأعمال من مثل تحطيم المنابر، وكسر الأقلام والمحابر، وغير ذلك من الصياح والنواح وإظهار الجزع، ومنع تغطية الرؤوس، ونحوها، ربما يظنُّ أنَّها مشروعة؛ لأنَّها صادرة من طُلَّاب العلم الشرعي، ومن تلاميذ أكبر إمام في وقته، وغالبهم من نوابغ عصرهم، فكانت كلمة الذهبي في موضعها حقًّا، ولا سيما أن هذا لم يكن عند وقوع المصيبة فقط، فنقول: إنَّها أثر الصدمة، بل استمر على ذلك هؤلاء، ومضَوْا معلنِينَ الحداد، وكشف الرؤوس عامًا كاملًا.

والذهبي لم يلُم إمام الحَرَمَيْن، بل لام هؤلاء التلاميذ، وكان إنكاره هادئًا متَّزِنًا. إذ قال: «هذا من زي الأعاجم، لا من فعل العلماء المتَّبعين».

(١) طبقات الشافعية (١٨٤/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والغريب أنَّ السُّــبْكي نقل الكلام بالمعنى، فقــال: «وهذا من فعل الجاهليَّة»، والذهبي لم يقل ذلك، مع أنَّه من فعل الجاهليَّة حقًّا، بل قال: «هذا كان من زي الأعاجم»!

كنت أودُّ للعلَّامة السُّبْكي أنْ يكون أكثر عدلًا وإنصافًا لشيخه الإمام الذهبي، وألَّا يُدخِل المعركة الخلافية مع الحنابلة في موقفه هذا، ولكن هذا هو شأن البشــر. فغفر الله للســبكي وللذهبي ولإمام الحَرَمَيْن، ولنا معهم أجمعين.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

خاتمة

بعد هذه الجولة الَّتي جُلْناها مع الإمامَين المؤرِّخَين: الذهبي والسُّبْكي ـ رحمهما الله تعالى ـ في ترجمتهما لإمام الحَرَمَيْن، ومحاولتنا أنْ نحكم بينهما بالعدل، وقد تبيَّن لنا أنَّ كليهما قد أعطى للرجل حقّه، وإن اختلفت زاوية النظر لدى كلٍّ منهما، فالذهبي ركَّز على نهاياته، والسُّبْكي ركَّز على أواسطه وبداياته، وإنما الأعمال بالخواتيم.

ويسرُّني أنْ أختم هذا البحث باقتباس صفحات من تصديري لكتاب إمام الحَرَمَيْن الشهير في الفقه، والذي أنفق فيه السنوات الأخيرة من عمره، وهو «نهاية المطلب في دراية المذهب»، وقد قام على تحقيقه وخدمته أخي الأستاذ الدكتور عبد العظيم محمود الديب، الَّذي حقَّق عدة كتب لإمام الحَرَمَيْن، انتفع الناس بها في مشرق ومغرب.

وحسبي أنْ أضع هنا هذه الفقرات من هذا التصدير كما هي:

عبقريَّة متميِّزة:

كان إمام الحَرَمَيْن عبقري زمانه ـ وما بعد زمانه ـ في العلوم الَّتي تجمع بين العقل والنقل، وهي: علم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، والخلاف.

QaradawiBooks.com

وربما يظنُّ كثير من الناس أنَّ علم الفقه علم نقلي بحت، وهو كذلك عند الكثيرين، ولكنَّه ـ عند إمام الحَرَمَيْن ومن جرى مجراه ـ له ارتباط وثيق بالعقل، في التأصيل والتدليل، والتقرير والتعليل، وربط المسائل بجذورها، ورد الفروع إلى أصولها، وقياس الأشباه بأشباهها، ومراعاة الجوامع والفوارق، ورعاية العلل والمقاصد.

الاستقلال في التفكير والاستقلال في التعبير:

تميَّز إمام الحَرَمَيْن بالاستقلال في التفكير، والاستقلال في التعبير:

فهو في أصول الدين أشعري، ولكنَّه قد يخالف الأشعري، برغم تعظيمه لقدره، وتقديره لفضله.

وهو في فروع الفقه شافعي، ولكنَّه قد يستقلُّ عن الشافعي بمسائل، وينفرد بنظرات وأفكار واجتهادات فقهية لم يسبق بها أحد.

وهو واضع اللمسات الأولى في مقاصد الشريعة، حيث أشار إليها في «البرهان»، وتحدث عن المصالح الضرورية والحاجية والتكميلية.

ثم جاء تلميذه الغزالي وصاغها صياغةً جديدةً متكاملةً، ووضع أسس البناء لهذه النظرية الَّتي توسع فيها الشاطبي فيما بعد.

وعبارات إمام الحَرَمَيْن في أكثر من كتابٍ له، بل في كل ما عرف من كتبه: تدلُّ على أنه شخصيَّة مستقلَّة الفِكْر، وإن انتسب إلى الأشعري اعتقادًا، وإلى الشافعي فقهًا، بل مع تعصُّبِه للشافعي إلى الحدِّ الَّذي جار على بعض المذاهب الأخرى، وبعض الأئمَّة مثل أبي حنيفة، كما تجلى ذلك في كتابه: «مغيث الخلق في اختيار الأحق»، وفي حديثه ـ في بعض الأحيان ـ عن الإمام مالك، واسترساله في المصلحة المرسلة.

QaradawiBooks.com

استمع إليه وهو يقول في «الغياثي»: «ومعظم المتلقِّبين بالتصنيف في هذا الزمان السخيف يكتفون بتبويب أبواب، وترتيب كتاب، متضمنة كلام من مضى، وعلوم من تصرَّم وانقضى»[١].

وفي موضع آخر يقول: «ولو ذهبتُ أذكر المقالات وأستقصيها، وأنسبها إلى قائليها، لخفتُ خَصلتين: إحداهما: خصلة أحاذرها في مصنفاتي وأتَّقيها، وتعافها نفسي الأبيَّة وتجتويها، وهي سرد فصل منقول عن كلام للمتقدِّمين مقول. وهذا عندي بمنزلة الاختزال والانتحال، والتشيُّع لعلوم الأوائل، والإغارة على مصنَّفات الأفاضل»[٢]!

فهو إذن يبحث عن الجديد، ويعاف تَكرار القديم.

ثم يقول: «وحق على كل مَن تتقاضاه قريحته تأليفًا، وجمعًا وترصيفًا: أنْ يجعل مضمون كتابه أمرًا لا يُلفَى في مجموع، وغرضًا لا يُصادَف في تصنيف»[٣].

وفي مكانٍ آخر من الكتاب نفسه يقول: «لستُ أحاذر إثبات حكم لم يُدونه الفقهاء، ولم يتعرض له العلماء، فإنَّ معظم مضمون هذا الكتاب لا يُلفى مدونًا في كتاب، ولا مضمَّنًا لباب. ومتى انتهى مساق الكلام إلى أحكام نظمها أقوام، أحلتها أربابها، وعزيتها إلى كتابها. ولكني لا أبتدع، ولا أخترع شيئًا، بل ألاحظ وضع الشرع، وأستثير معنًى يناسب

(١) الغياثي صـ ٣٩، فقرة (٤٥).
(٢) المصدر السابق صـ ١٦٤، فقرة (٢٤٢).
(٣) الغياثي الفقرة نفسها.

QaradawiBooks.com

ما أراه وأتحرَّاه. وهكذا سبيل التصرُّف في الوقائع المستجدَّة الَّتي لا توجد فيها أجوبة العلماء معدَّة»[١].

وهذا شائع في كتبه كلها، وهو يعتدُّ بذلك، ويباهي به إلى حد قد تصفه بالعُجْب أو الغرور، ولكنها ـ كما قال أخي عبد العظيم ـ الثقة الكاملة بالنفس. يقول في «البرهان» معقِّبًا على ما عرض فيه لأنواع الجموع: «ونحن من هذا المنتهى نفرِّع ذروة في التحقيق لم يُبلغ حضيضها، ونفترع معنى بِكْرًا، هو على التحقيق منشأ اختباط الناس في عملياتهم»[٢].

ولقد أقرَّ الفقهاء والأصوليُّون والمُتَكَلِّمون من بعده بأصالته وتقدُّمه واستقلاله في العلم والفكر، فهو نسيجُ وحدِهِ فيما يصنف ويكتب، غير مقلِّدٍ لأحدٍ قبله.

يقول التاج السُّبْكي في «طبقاته» عن كتابه «البرهان»: «اعلم أنَّ هذا الكتاب وضعه الإمام في أصول الفقه على أسلوب غريب، لم يقتدِ فيه بأحد، وأنا أسمِّيه «لغز الأُمَّة» لما فيه من مصاعب الأمور، وأنه لا يخلي مسألة عن إشكال، ولا يخرج إلَّا عن اختيار، يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبدُّ بها، وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعيَّة»[٣].

فانظر إلى هذه العبارات: «لم يقتدِ فيه بأحد»، وقوله: «عن اختيار يخترعه لنفسه، وتحقيقات يستبدُّ بها»، ممَّا يدلُّ على أنَّ الرجل من المبدعِين، وأصحاب العقول المبتكِرة.

(١) الغياثي صـ ٢٦٦، فقرة (٣٧٨).

(٢) انظر: البرهان (٣٢٨/١) فقرة (٢٣٤).

(٣) طبقات الشافعية (١٩٢/٥).

QaradawiBooks.com

وفي موضع آخر يعلِّق السُّبْكي على ما وصفه بتحامل الإمام المازري وغيره من علماء المالكيَّة الَّذين شرحوا «البرهان»، مبيِّنًا سبب هذا التحامل في رأيه، فقال: «إنَّهم يستصعبون مخالفة الإمام أبي الحسن الأشعري، ويرونها هُجْنة عظيمة، والإمام ـ إمام الحَرَمَيْن ـ لا يتقيَّد لا بالأشعري ولا بالشافعي، لا سيما في «البرهان»، وإنما يتكلَّم حسب تأدية نظره واجتهاده، وربما خالف الأشعري، وأتى بعبارة عالية على عادة فصاحته، فلا تتحمَّل المغاربة أنْ يقال مثلها في حق الأشعري».

قال السُّبْكي: «وقد حكينا كثيرًا من ذلك في شرحنا على «مختصر ابن الحاجب»»[١].

وقد استدل الحافظ السيوطي (ت: ٩١١هـ) في رسالته «الرد على مَن أخلد إلى الأرض وجهل أنَّ الاجتهاد في كل عصر فرض» بعبارة السُّبْكي هذه: أن إمام الحَرَمَيْن لا يتقيَّد بالأشعري ولا بالشافعي، وإنما يتكلَّم حسب ما يؤديه إليه نظره واجتهاده: أنَّ هذا الإمام قد استقلَّ بالاجتهاد، وتحرَّر من التقليد[٢].

ونقل عن ابن المنير أنه قال في حق إمام الحَرَمَيْن: «له علوُّ هِمَّة إلى مساواة المجتهدين».

ووصفه الحافظ القزويني بأنه: «المجتهد ابن المجتهد»[٣].

---

(١) طبقات الشافعية (١٩٢/٥).

(٢) الرد على مَن أخلد إلى الأرض للسيوطي صـ ١٩١، تحقيق خليل الميس، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٣) المصدر السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

ومما يؤكد ذلك: ما ذكره الدكتــور الديب في تحقيقه «للبرهان» من جملة فهارس لها دلالتها وأهميتها في آخر الكتاب، ومنها ثلاثة فهارس ننبه عليها هنا:

١ ـ فهرس المســائل الَّتي خالف فيها إمام الحَرَمَيْن الشــافعي. وقد أحصاها، فكانت أربعًا وعشرين مسألة.

٢ ـ فهرس المســائل الَّتي خالف فيها إمام الحَرَمَيْن الأشعري. وقد حصرها في ثلاث مسائل.

٣ ـ فهرس المســائل الَّتي خالف فيها إمام الحَرَمَيْن القاضي أبا بكر الباقلَّاني. وهو الرجل الثاني بعد الأشعري، وقد أحصاها، فكانت إحدى وأربعين (٤١) مسألة[١].

وهو يتحــدث عن الإمام الأشــعري بــكل احترام وتقديــر، ولكن لا يمنعه هذا أنْ يقول في بعض المسائل: ورأي الأشعري مختبط في هذه المســألة[٢]! وكيف لا وقد علق على قوله لوالده الإمام المعروف فقال: وهذه زلة من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]؟

وأمَّا اســتقلاله في «التعبير»، فهو ظاهرة ملحوظة في كل ما يكتب، فمعجمه اللغوي رحب، ومفرداته كثيرة، وهو ينتقــي منها ويتأنَّق فيها، إلى حد الإغراب في بعض الأحيان، ولا يكاد يستخدم عبارات مَنْ قبله، وكثيرًا ما يلتزم السجع، كما هو نمط عصره، وأغلبه مستساغ، وقليل منه

(١) انظر: هذه الفهارس في أواخر الجزء الثاني من البرهان صـ ١٤٤٣ ـ ١٤٤٩.

(٢) البرهان صـ ٢٧٧، فقرة (١٨٦).

(٣) انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٣٤٠/٥)، تحقيق محمود الأرناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

متكلَّف، وقد رأيناه يلتزم السجع في بعض كتبه، مثل: «غياث الأمم»، فهو مسجوع من أوله إلى آخره، إلَّا ما ندر.

وأحيانًا أخرى يتحرَّر من السجع، ويمضي مسترسلًا، ككبار البلغاء. قال ابن خلِّكَان: «ورزق من التوسُّع في العبارة ما لم يُعهد من غيره»[١].

عقل كبير وقلب كبير:

وكما تميَّز الإمام الجُوَيني بعقله الكبير، تميَّز بقلبه الكبير، فقد اتَّفق مؤرِّخوه أنَّ الرجل كان من «أصحاب القلوب» الَّذين لهم مع الله تعالى حال ومقام، وكان إذا ذكَّر الناس في مجلسه بكى وأبكى الحاضرين.

وهذا مع أنَّ الَّذين يشتغلون بالقضايا العقلية، والمجادلات الكلامية، يصابون بجفاف الرُّوح، وقسوة القلوب، إلَّا مَن رحم ربك من القلائل الَّذين احتفظوا بقلوبهم حية لم تمت، سليمة لم تسقم، صافية لم تُشَب، ومنهم إمام الحَرَمَيْن، قد قال هو رَحِمَهُ اللَّهُ بحق: «من ضَرِي بالكلام صَدِي جَنانه»[٢]!

قال عبد الغافر الفارسي: «كان من رقَّة القلب بحيث يبكي إذا سمع بيتًا، أو تفكَّر في نفسه ساعةً. وإذا شرع في حكاية الأحوال، وخاض في علوم الصُّوفيَّة في فصول مجالسه بالغدوات: أبكى الحاضرين ببكائه، وقطر الدماء من الجفون بزعقاته ونعراته وإشاراته؛ لاحتراقه في نفسه، وتحقُّقه بما يجري من دقائق الأسرار»[٣] اهـ.

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (١٦٨/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) انظر: مقدمة كتابه الغياثي صـ ٥.

(٣) المختصر من كتاب السياق لتاريخ نيسابور (٤٤٤/١)، تحقيق محمد كاظم المحمودي، نشر ميراث مكتوب، طهران، ط١، ١٣٨٦هـ.

QaradawiBooks.com

وقد تجلَّى ذلك في خُلُقه وسلوكه مع من حوله، ومن ذلك خلق التواضع، فقد ذكروا أنه كان من التواضع لكل أحدٍ بمحل يُتخيَّل منه الاستهزاء لمبالغته فيه.

ومن حميد سيرته: أنه ما كان يستصغر أحدًا حتَّى يسمع كلامه، شاديًا كان أو متناهيًا، صغيرًا كان أو كبيرًا، ولا يستنكف أنْ يعزي الفائدة المستفادة إلى قائلها، ويقول: «إنَّ هذه الفائدة ممَّا استفدته من فلان».

وإذا لم يرضَ كلام أحدٍ زيَّفه، ولو كان أباه أو أحد الأئمَّة المشهورين[1].

فهذا كله ينطق بأنَّ هذا الإمام قد رُزق من نقاء القلب ما رُزق من ذكاء العقل، والله يختص بفضله مَن يشاء.

كلمة عتاب لإمام الحَرَمَيْن:

هذا هو إمام الحَرَمَيْن: قمة في فكره وفقهه، قمة في إنتاجه وعطائه، قمة في مكارمه وفضله، قمة في غيرته على دينه ودفاعه عنه، ومع هذا فالكمال لله تعالى وحده، والعصمة لرسوله ﷺ.

وكم كنتُ أتمنَّى لهذا الإمام الكبير ألَّا يبالغ في مدح نظام الملك، كما هو ظاهر في أكثر من موضع في كتابه «الغياثي»، وفي مقدمته خاصَّة، حين قال في قصيدة له يمدحه بها:

ومَا أَنَا إِلَّا دَوْحَة قد غَرَسْتَها وسقيتَها حتَّى تمادى بها المَدَى
فلما اقشعرَّ العُود منها وصوَّحت أتتك بأغصانٍ لها تطلب النَّدى

(١) طبقات الشافعية (١٨٠/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد قال التاج السُّبْكي: «إنَّه وجد بخطِّه رضي الله عنه في خطبته للغياثي ـ وهو عنده بخطه ـ أنَّه قد ضرب على البيتَيْن الأخيرين»، قال السُّبْكي: «وسُرِرتُ بذلك، فإنِّي سمعت شيخ الإسلام ـ يعني: والده التقي السُّبْكي ـ رحمه الله يحكي عن شيخنا أبي حيان: أنَّه كان يتعاظمهما، ويقول: كيف يرضى الإمام أنْ يخاطب النظام بهذا الخطاب، ثمَّ يذمُّ الدنيا الَّتي تُحوج مثل الإمام إلى مثل ذلك؟!»[1].

وما يدرينا لعلَّ نيَّته في ذلك خير ينشده للدين أو للمسلمين، وإنما لكل امرئ ما نوى، أو لعلها لحظة ضعف ممَّا يعتري البشر، استدركها الإمام على نفسه، وإنما استُعظِمَتْ منه؛ لأنَّه عظيم حقًّا.

كما كنتُ أودُّ ألَّا يغلو في نقده للمذهب الحنفي إلى حد العنف الجارح الَّذي لا يليق من أهل العلم بعضهم لبعض، كما بدا ذلك في كتابه «مغيث الخلق في اختيار الأحقّ»، وقد أنكر بعضهم نسبة الكتاب إليه، ولعل أخي عبد العظيم منهم، وكم أتمنى أنْ يصحَّ ذلك، ولكن وجدت في أواخر «البرهان»[2] ما يؤيِّد بعض ما في الكتاب. كما أنَّ المؤرِّخين من بعدِه نسبوا الكتاب إليه.

وكذلك لم أكن أحب له أنْ يشتدَّ في نقد إمام دار الهجرة مالك بن أنس لأمور لم تثبت عنه، كالقول بقتل الثلث لإبقاء الثلثين، ونحو ذلك. وإنْ كان في بعض الأحيان قيَّدها بقوله: إذا صحَّ ذلك عنه، وهذا هو الواجب.

(١) طبقات الشافعية (٥/٢٠٩).

(٢) البرهان (٢/١٣٦٤، ١٣٦٥) فقرة (١٥٥٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأيضًا لم أكن أودُّ من رجل كبير مثله أنْ يتحدث عن معاصره قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) بمثل تلك اللهجة الساخرة المهينة[١]، الَّتي نفى بعض الناس أنْ يكون الماوردي هو المقصود بها، حتَّى قال المحقِّق الكبير الشيخ السيِّد أحمد صقر رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث مع الدكتور الدِّيب: «أجُنَّ إمام الحَرَمَيْن حتَّى يقصد بذلك الإمام الماوردي؟!» ولكنَّ الدلائل كلَّها تقطع بأنَّه الماوردي، وهو ما أكَّده الدكتور الديب.

ويبدو أنَّ هذا الإمام الفذ ـ مع عقله الكبير ـ كان حارَّ العاطفة، حادَّ المزاج، فلا يبعد أنْ تغلبه ـ مثل كثير من العظماء ـ حِدَّة الطبع، فتدفعه إلى المبالغة في المدح إذا مدح، وإلى الإسراف في النقد إذا نقد، وهذا يؤكد أنَّ الإنسان هو الإنسان، وإن بلغ في العلم والفضل ما بلغ. وقد قال الشاعر قديمًا:

مَن ذا الَّذي ما ساء قَطُّ؟ ومَن له الحُسْنَى فَقَطْ[٢]؟!

ومهما يكن الأمر، فحسنات الرجل أكثر، وفضائله أغزر، ومكارمه أكبر، والله أعلم بالسرائر، وفي الحديث الَّذي استدلَّ به الشافعيَّة: «**إذا بلغ الماء قُلَّتين لم يحمل الخبث**»[٣]. وفي رواية: «**لم يُنَجِّسْه شيءٌ**»[٤].

---

(١) انظر: البرهان (٣٠١/١، ٣٠٣) الفقرة (٤٣٢)، وانظر ما قاله عنه في الغياثي صـ ١٤٠، ١٥٥، ١٥٧، ٣٠١، فقرات: (٢٠٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٤٣٢).

(٢) البيت من مقامات الحريري صـ ٢٢٩، ٢٣٠، نشر مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

(٣) رواه أحمد (٤٦٠٥)، وقال مخرِّجوه: صحيح. وأبو داود (٦٣)، والترمذي (٦٧)، والنسائي (٥٢) وابن ماجه (٥١٧)، جميعهم في الطهارة، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصحيح (٤١٦)، عن ابن عمر.

(٤) رواه أحمد (٤٧٥٣)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وابن ماجه في الطهارة (٥١٨)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

فكيف إذا كان بحرًا زاخرًا؟ غفر الله لإمام الحَرَمين وجزاه خيرًا عما قدَّم لدينه وأُمَّته.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾	٧	٣٥
﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾	١٨٧	٤
سورة الأعراف		
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	٤
سورة التوبة		
﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾	٤٢	٣٤
﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾	٨٠	٤٤
سورة طه		
﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾	٥	٢٨، ٣٥، ٤٠
سورة المؤمنون		
﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾	٦٣	٣٤
سورة فاطر		
﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾	١٠	٤٠

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الصافات		
﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾	١٨٠ ـ ١٨٢	٥٩
سورة ص		
﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾	٧٥	٣٦
سورة الشورى		
﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾	١١	٤٠
سورة القمر		
﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾	١٤	٣٦
سورة الرحمن		
﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾	٢٧	٣٦
سورة الفجر		
﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾	٢٢	٣٦

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

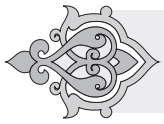

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم	٤٤
إذا بلغ الماء قُلَّتين لم يحمل الخبث. وفي رواية: لم يُنَجِّسْه شيءٌ	٥٨
م	
من سلك طريقًا يطلب فيه علما سلك الله به طريقًا إلى الجنة	٥
ي	
يرث هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين	٥

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

فهرس الموضوعات

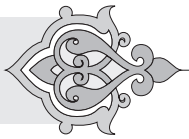

❖ من الدستور الإلٰهي للبشرية ٤

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• **مقدمة** ٧

❖ ترجمة إمام الحَرَمَيْن بين الحافظَيْن الذَّهبي والسُّبْكي ١٣

❖ ترجمة الذَّهَبِيِّ لإمام الحَرَمَيْن ١٥

❖ ترجمة السُّبْكي لإمام الحَرَمَيْن ١٧

❖ مؤاخذات السُّبْكي على الذهبي ٢١

❖ ١ ـ حول علم الله تعالى بالجزئيات ٢٢

دفاع السُّبْكي عن الإمام ٢٥

❖ ٢ ـ سؤال الهمذاني وجواب الإمام ٢٨

❖ ٣ ـ رجوعه عن التأويل وعلم الكلام ٣٢

❖ ٤ ـ إمام الحَرَمَيْن وعلم الحديث ٤٢

❖ ٥ ـ موقف تلامذة إمام الحَرَمَيْن عند موته ٤٦

QaradawiBooks.com

- **خـاتمــة** **٤٩**

عبقريَّة متميِّزة ٤٩

الاستقلال في التفكير والاستقلال في التعبير ٥٠

عقل كبير وقلب كبير ٥٥

كلمة عتاب لإمام الحَرَمَيْن ٥٦

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **٦٣**
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **٦٥**
- **فهرس الموضوعات** **٦٧**

❊ ❊ ❊

غير مرخص للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية